المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

ثورة سنة 1920

إن الاضطرابات التي انفجرت بين أَفراد العشائر في منتصف صيف سنة 1920م، كانت الشرارة لنشوبها اعتقال الشيخ شعلان أَبو الجون، شيخ قبيلة الظوالم في 30 حزيران في الرميثة، فهاجم رجاله سراي الحكومة وقتلوا عدد من البريطانيين، فكانت تلك الرصاصات ايذانا بإعلان الثورة في العراق، تلك الثورة التي كان الفلاحون وقودها، وكانت أَسلحتهم بدائية وقديمة إن وجدت، أما القوات البريطانية في العراق، ضمت 133 أَلف جندي منهم 4200 بريطاني والبقية من جنسيات مختلفة أَغلبهم من الهنود، وكانت هذه القوات مدربة تدريبا جيدا ولديها أَسلحة متطورة بما فيها المدافع والطائرات.

امتدت الثورة بسرعة إلى مناطق العراق المختلفة، فأَعلنت الثورة في النجف يوم 2 تموز ورفع علم الثورة العربية على سراي الحكومة، وأَسرع الناس إلى الجهاد في سبيل الله ثم الوطن وتمكن ثوار الرميثة من قطع سكة الحديد ومقاتلة القوات البريطانية التي زحف نحو الرميثة، وحاصروها حصارا شديدا على الرغم من قصف الطائرات البريطانية، مما اضطر القوات البريطانية إلى التراجع نحو الحلة، وفي الشامية استطاع الثوار السيطرة على المدينة، وأَجبرت الحامية البريطانية على الانسحاب إلى الديوانية، وقد شجعت تلك الانتصارات مناطق العراق الأُخرى لإعلان الثورة، وتمكن الثوار من احراز نصر كبير في موقعة الرستمية قرب الكفل يوم 24 تموز فاضطرت القوات البريطانية إلى التقهقر نحو الحلة بعد أَن فقدت 318 جنديا.

اتبع البريطانيون لمواجهة الثورة سياسة فرق تسد لإضعاف قوى الثورة من خلال إثارة الخصومات بين قادتها، الأَمر الذي حال دون وحدة القيادة العسكرية، وقاموا في الوقت نفسه بتعزيز قواتهم في العراق ومهاجمة مناطق الثائرة، وصل السير بيرسي كوكس إلى بغداد لتولي منصب المندوب السامي في العراق 11 تشرين الثاني وأَصدر بعد وصوله بيانا موجها إلى الشعب العراقي، حاول فيه تعطيل شعبية الثورة، وتظاهر بعدم معرفة الأَسباب التي دعت إليها، ووعد بتشكيل حكومة وطنية في البلاد.

لا غرو أَن عن عوامل يعود البعض منها إلى أُمور مألوفة منذ زمن بعيد في العراق، وذلك من أَمثال التمسك بالقبيلة والمقاومة، وحب الغزو، وتحريض مجتهدي المؤسسة الدينية، ومطامع المشيخة

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

المحلية، أَو التنازع على المشيخة، والامتناع عن دفع الضرائب، وشدة النفور من الحكومة، كما يعود البعض الآخر من هذه العوامل إلى الحماسة والدعاية القومية.

ومن الأُمور التي ساعدت في تلك العوامل، تبعثر القوات البريطانية، وقلة عددها، وإعادة توزيعها، ووضع القيادة العسكرية التي كانت تبدو في بعض الأَحيان فاترة أَو متعبة، وفي أَحيان أُخرى، غير متعاطفة، أَن صوابا حدث ذلك أَم خطأ، مع حاجات الإدارة أَو حجمها. ولقد أَدى الهجوم المسلح للعشائر الناتج عن ذلك، إلى إخضاع البلاد، لمدة ثلاثة شهور، إلى أَوضاع مشابهة لما كانت عليه أَثناء الحكم التركي، وذلك في فترة من أَكثر الفترات التي مرت بها فوضى واضطرابا.

ومن الأَسباب والظروف التي أَوقدت قيام الثورة، فداحة الضرائب التي فرضت على المزارعين، والتي كانت من بواعث التمرد والتذمر، المعتادين على التهرب من دفعها إبان الحكم العثماني، وكذا استنزاف جهود العاملين في الزراعة والإستيلاء على مواردها من الخامات بأَثمان منخفضة وردها بعد استخدامها في الصناعة الحديثة لتصريفها في الأسواق بأعلى الأثمان. بالإضافة إلى ذلك، الواقع الذي عاشته أَوساط واسعة من سكان العراق المتسم بمظاهر البؤس والفاقة والحرمان والتخلف الاجتماعي، كإحدى نتائج، التضخم النقدي الذي تسبب بارتفاع الأسعار مما أَضر بالطبقة الفقيرة في العراق.

انتهجت السلطات البريطانية الأساليب القهرية ذات الطبيعة الإزدرائية إزاء سكان البلاد، وقد اعتمدت السلطات البريطانية على من كان يعتبر من "المنبوذين" في المجتمع؛ فأساءت إلى من كان يعتبر من "الأشراف" والشيوخ والمحترمين، وقد كان لهذا التصرف نتائج سلبية برزت في علاقة الشيوخ ومجموعات من الأشراف مع القوات والسلطات البريطانية، وقادت سياسة سلطات الاحتلال البريطانية، التي تضمنت اختيار شيخ من شيوخ العشائر في منطقة معينة، ومنحه راتبا ثابتا للمحافظة على أمن المنطقة؛ إلى إثارة إشكالات سياسية وصراعات بين العشائر، التي كانت تقطن في المنطقة ذاتها، فبعد فقدان طبقة الأفندية أَهميتها عند مجيء البريطانيين إلى العراق، لذا مارس أَفرادها دورا مهما في إثارة الناس على الإنجليز وإشاعة روح الثورة، لما كانوا يملكونه من خلفية ثقافية عالية، واطلاع على الثورات مقارنة ببقية الشعب الذي كان في غالبه من الأُميين.

أَما بخصوص العوامل الخارجية التي أَسهمت في قيام ثورة عام 1920، الحراك السياسي المناوئ للحكم الإنجليزي خارج العراق من قبل الضباط العراقيين في سوريا والذين تولوا هناك مناصب عالية،

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

فأخذوا يسعون للحصول على استقلاله، فقد بايعوا الأمير عبد الله ملكاً على العراق بعد تتويج أخوه الأمير فيصل ملكا على سوريا عام 1920م، وأرسلوا رسائل إلى علماء منطقة الفرات الأوسط وشيوخ العشائر يخبرونهم بهذا النبأ، كما أرسلوا إليهم العلم ذا الألوان الأربعة وقد اتخذوه راية للعراق المستقل. كذلك أحيت انتصارات كمال أتاتورك في الأناضول الآمال لدى العراقيين الذين كانوا يبغضون العهد الجديد والمتمنين عودة الأتراك قريبا لطرد الإنجليز. ويضاف إلى ذلك، انتقال أفكار الثورة البلشفية الداعية للتحرر والاستقلال إلى العراق عن طريق الزوار والطلبة القادمين من بلاد فارس، وكذلك ثورة 1919 المصرية بقيادة سعد زغلول دورا محفزا لأوساط المثقفين، المطلعين على أخبارها من جهة، وعلى فكرها من جهة ثانية، الذي كان يتجلى فيما تنشره الصحافة المصرية من قيم نضالية ضد الهيمنة الأجنبية.

لقد خفت حدة المعارك، بعد فترة قصيرة من وصول بيرسي كوكس واعتبرت الثورة منتهية بعد المفاوضات التي أجرتها بريطانيا مع الثوار في الرميثة، آخر معقل للثورة وتوقيعها الاتفاق معهم في 20 تشرين الثاني 1920م، تعهدت فيه بأن للعراق ستكون حكومة عربية مستقلة، وعدم مطالبة الثوار بالخسائر التي لحقت بالحكومة البريطانية، مع العفو من الضرائب لسنة الثورة على أن يتعهدوا بتوطيد الأمن والنظام في مناطقهم وأن يأخذوا على عاتقهم المحافظة على السكة الحديدية المارة في أراضيهم، وأن يسلموا الحكومة البريطانية 2400 بندقية.

النتائج المادية والسياسية لثورة العشرين:

1- أسفرت الثورة عن مقتل 6000 آلاف عراقي ونحو 500 جندي بريطاني وهندي، وقد كلفت الثورة الحكومة البريطانية ما مقداره (40,000,000) باوند، والذي كان ضعف مبلغ الميزانية السنوية المخصصة للعراق.

2- منحت الثورة المجتمع العراقي الإحساس بالكيان الواحد، الذي لم يكن واضحا في فترة الحكم العثماني. وبلورة مفهوم الوطنية العراقية – أو الهوية العراقية – والشعور بالجماعة بين أبناء البلد الواحد الذي أخذ بالتشكل آنذاك. فالعراق قبل الاحتلال البريطاني، لم يكن مجتمعا واحدا أو شعبا متجانسا, وإنما ولايات منفصلة, فيما كانت الإنقسامات الإثنية والمذهبية والدينية والمناطقية والقبلية قد خلخلت البنية الإجتماعية للبلد بصورة كبيرة جدا. وأكد هذا الرأي حنا بطاطو بقوله: (في مطلع القرن

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

العشرين لم يكن العراقيون شعباً واحداً أَو جماعة سياسية واحدة, وهذا لا يعني الاشارة فقط إلى وجود الكثير من الأَقليات العرقية والدينية كالكرد والتركمان والفرس والآشوريين والأَرمن والكلدانيين واليهود واليزيديين والصابئة وآخرين, فالعرب أَنفسهم الذين يؤلفون أَكثرية سكان العراق كانوا يتشكلون إلى حد بعيد من جملة المجتمعات المتمايزة والمختلفة) ولم يتلمس العراقيون وجودهم كشعب أَو أُمة مستقلة لها كينونة خاصة – وان كانت غير مكتملة المعالم أَو محددة الأَبعاد – إلا بعد الإحتلال البريطاني للبلاد, وبما أن **الآخر** شرط الهوية, فالعراقيون اعتبروا الإنجليز هم الآخر, بحكم الإختلاف الديني والسياسي والمحمولات الاسلامية ضد الغرب والديانة المسيحية ذات الشحن العاطفي والشعبوي, والدليل إطلاق صفة الجهاد على المعارك التي حصلت ضد البريطانيين عام 1914 في البصرة. فيما عززت ثورة العشرين التوحد السياسي والاجتماعي البدائي آنذاك حتى وصفت بأَنها المدرسة الوطنية الأُولى في تاريخ العراق الحديث والمعاصر, لأنها الحدث الوحيد الذي حاز على أَعلى على نسبة من التأييد والمشاركة في البلاد، التي شكلت نوعا من التضامن العضوي بين أَبناء الوطن الذي لم يتشكل في الأَصل بعد, وهذا يعني إن الوطنية في العراق سابقة على الدولة, وليس نتيجة لها – كما حصل في بعض البلدان – ونقصد بالوطنية ليس النمط الخطابي والشعاراتي الذي تبلور بقوة بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة, من خلال استغلال مقدرات الدولة وامكاناتها الاعلامية والتعليمية كنمط موازي للوطنية الشعبية التي طالب بها رواد الحركة الاستقلالية في النجف وكربلاء وبغداد, وإنما النسق الذي يقصد به الشعور بالجماعة والهوية العراقية والتضحية في سبيلها والاعتزاز بتاريخها.

إن الوطنية التي أَسستها ثورة العشرين – أَو نادت بها – هي عبارة عن (وعي زائف) أَو (إيديولوجيا) متسامية عن الواقع البدائي الذي يعيشه المجتمع العراقي, والذي تحركه البنى التقليدية كالطائفة والدين والإثنية والعشائرية وغيرها, لأَنها تفتقد إلى الشروط الموضوعية لقيامها, وأَهمها الوعي السياسي والتعليم الحديث والمجتمع المتوحد. وهذا (الوعي الزائف) لا يشكل اختلالاً كبيرا أَو منقصة جوهرية في هذه الثورة لسبب بسيط هو أَن الوعي بالحالة العراقية – أَو النزعة العراقية – قد شهدت البواكير الاولى لتكوينها وبلورتها, ولم يكن نسقاً متأصلاً بصورة يمكن إطلاق عليها هذه الصفة بصورة جازمة. إلا أَنه يمكن القول بأَن العراقيين قد تعرفوا على الوطنية بمرحلتها (الجنينية) الأُولى.

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

2- مثلت الثورة جرس إنذار للإدارة البريطانية بتزايد الوعي الوطني العراقي، المطالب بالحكم المستقل، لذا أجبرتها على إعادة النظر باستراتيجيتها في العراق. حيث وجدت بريطانيا أن الحكم المباشر للبلاد مكلف للغاية، لذا شكلت حكومة عراقية مؤقتة ضمت (21) شخصية من الولايات العراقية الثلاث، برئاسة عبد الرحمن النقيب وذلك في شهر تشرين الثاني عام 1920م. ومباشرة العمل بإنشاء دولة جديدة تحت حكم عربي. إن العراق الحديث هو النتاج التاريخي لعملية التوحد السياسي والاقتصادي للولايات العثمانية الثلاث الموصل وبغداد والبصرة. وهذه الصيرورة تعززت بسبب النمو المتزايد للحركة القومية والاستقلالية.

3- أحبطت المشروع البريطاني الطامع بجعل العراق جزءا من التاج البريطاني كما كان الحال في الهند، وعطل مشروعهم لتوطين عائلات بريطانية وأُخرى هندية بأعداد كبيرة في البلاد.

4- قامت الحكومة البريطانية في آذار 1921م، بعقد مؤتمر موسع بالقاهرة يرأسه تشرشل، وبمشاركة وفد عراقي نوقش فيه علاقة الدولة العراقية الناشئة مع بريطانيا من حيث الإنفاق، وكذلك تحديد شخصية من يتولى عرش البلاد وشكل القوات الدفاعية فيها، وأوضاع المناطق الكردية وطبيعة علاقتها بالحكومة العراقية.

5- شرع البريطانيون بحملة تهدف إلى إقناع السكان وإضفاء مظهر من الشرعية على النظام الجديد والملك، حيث تم إصدار التعليمات إلى السلطات المحلية بعقد الاجتماعات لأجل مناقشة والتصويت على وصول الملك فيصل إلى العرش، إلا أن هذه العملية ما لبثت أن تحولت إلى ذات الأُسلوب الذي تم فيه التصويت على الاستفتاء، حيث تم الطلب بتقديم عدد من المضابط التي تؤيد الملك عبر اجماع إيجابي. ولكن صوتت كل من كركوك والسليمانية ضد الملك الجديد، وطالبت الموصل بإضافة بعض الشروط التي تؤكد على حفظ حقوق الأقليات السياسية والثقافية. أما البصرة فقد أخرت العملية، مصرة على الحصول على نظام فيدرالي واسع. أما بغداد، والتي تتركز فيها معظم لنشاطات الوطنية، فإنها قد طالبت بالديمقراطية المستقلة والمجردة من كل قيد ومنقطعة عن سلطة الغير. بل ذهبت بغداد إلى أبعد من ذلك مطالبةً بتأليف وجمع المؤتمر العام الذي يسن القوانين والدستور خلال ثلاثة أشهر من حين تسلمه {الملك فيصل} زمام الأُمور.

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

6- ومنذ ذلك الوقت تطورت علاقة مضطربة، وفي بعض الأَحيان عدائية بين الوطنيين الذين كانوا يطالبون بديمقراطية برلمانية وبين المندوب السامي وباقي الكادر البريطاني، الذين لم يكونوا يعارضون إعطاء بعض الحريات السياسية، طالما أَنها لا تقوض النفوذ السياسي البريطاني. لقد أَوصل هذا الصراع المتراكم تلك العلاقة إلى مرحلة الانهيار بعد عام واحد من تنصيب الملك فيصل. حيث أَن نفس تجمع بغداد الذين طالبو بملكية دستورية قد بعثوا مذكرة إلى الملك تنتقده بشدة لتأخير تشكيل مجلس شرعي تكون الحكومة مسؤولة أَمامها، بما يتماشى وشروط تشكيل الحكومة الدستورية. وكذلك اشترطوا أَلا يتم توقيع أَي اتفاقية مع بريطانيا قبل أَن يتم انتخاب المجلس بحرية تامة. وبالرغم من أَن المذكرة تقع في حيز الخطاب السياسي المقبول، أَلا أَن المندوب السامي عدها تطورا خطيرا، وتأجيج سياسي من قبل أَقلية لا تتمتع بالتمثيل السياسي، لذا فقد تحرك ضد قادة المجتمع، نافيا بعضهم إلى خارج البلاد.

7- امتد الغضب على أَفعال المندوب السامي إلى أَبعد من الطبقات المتعلمة والمهنية، إذ أَن رجال الدين الذين طالبوا فيصل بحكم برلماني دستوري، قد قاموا الآن بإصدار فتوى تحرم على الناس المشاركة في انتخابات الجمعية ما لم تقم الحكومة والبريطانيون بالاستجابة إلى مطالب الناس، والتي تتضمن إلغاء قوانين طوارئ وضمان حرية الصحافة وضمان حق التجمع وتكوين الأَحزاب السياسية، بالإضافة إلى إعادة القادة السياسيين الذين تم نفيهم إلى خارج البلاد.

8- وبطريقة أَو بأُخرى فقد كانت هذه الحادثة صورة مصغرة للمعضلة البريطانية في العراق والتي سوف تستمر طيلة فترة الانتداب 1921-1932. فعلى الرغم من أَن أَفكار الحرية والاستقلال قد أَخذت تشق طريقها إلى الوعي الشعبي، إلا أَن هنالك فجوة كبيرة بين التطلعات الوطنية والديمقراطية التي تنادي بها الأَقلية المتمدنة والمثقفة الناشطة وبين الأَغلبية من الأُميين من العراقيين التي لم تكن تهتم بالأَفكار الراديكالية حول التغيير السياسي والتحول الديمقراطي.

9- لقد أَسهمت هذه المشكلة في تعميق التناقض الذي تعاني منه السياسة البريطانية، والتي كانت متأرجحة بين التزاماتها بالحكومة الممثلة للشعب من جهة وبين الحاجة إلى الحفاظ على حقوق الإمبراطورية المهيمنة للتحكم بمصير الشعب الذي لم يصل بعد إلى مرحلة النضج السياسي. لذا فبينما

المحاضرة السابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

كانت وزارة الخارجية تعلن أَن بريطانيا ملتزمة بوجود (ملكية دستورية) وأَنها تعمل على تحقيق ذلك، فإِن كوكس كان قد أَعطى لنفسه السلطة بالتحكم بالقرارات التنفيذية التي تصدرها الكابينة الوزارية. وكما رأينا، فإِن التجاذب بين هذين الدافعين قد عكر العلاقة بين البريطانيين والنخب السياسية العراقية خلال فترة الانتداب. ومن ناحية التطور الديمقراطي، فلقد انعكس ذلك من خلال العمر القصير للجمعية التأسيسية، والتي كانت أَول برلمان عراقي منتخب.